مألوفاً لدى رجال الدولة، كما كان يحضر بانتظام مجلس الملك العام والخاص، وكان أفراد الديوان يعدونه صديقاً ومستشاراً لجلالته مع أنه لم يكن خادماً له بأي شكل من الأشكال؛ لأنه كان يذهب ويعود متى أراد »(٥٤).

مؤلفات فيلبي وأوراقه التاريخية

كانت حياة فيلبي السياسية وتحركاته الشخصية حافلة بالعديد من النشاطات التاريخية التي أثمرت عن مجموعة كبيرة من الآثار العلمية التاريخية التي يمكن تصنيفها في هذه الدرسة إلى مؤلفات ومقالات وأبحاث منشورة، ومقالات وأبحاث غير منشورة، ثم أوراق وتقارير رسمية، على نحو ما يأتي تفصيله:

أولاً : المؤلفات والبحوث التاريخية.

إن المتتبع لتاريخ وحياة فيلبي وآثاره يلحظ أنه كما برز في الجانب السياسي فقد برز وبرع كذلك في جانب التاريخ والرحلات والآثار، يدل على ذلك ما بين أيدينا من مؤلفات عديدة لفيلبي قام بتأليفها وجمع فيها - بالإضافة إلى السياسة - بين التاريخ والرحلات والآثار . وتعد أبرز مؤلفات فيلبي التي تدور في فلك هذه الجوانب المهمة، مرتبة بحسب تاريخ صدورها ، ما يأتي:

١ - قلب الجزيرة العربية (THE HEART OF ARABIA)

وقد صدر الكتاب في لندن عام ١٩٢٢م؛ ولذلك يعد هذا الكتاب من أقدم الكتب، بل إذا ما استبعدنا التقارير الرسمية التي نشرت لفيلبي من قبل، فربما يكون هذا الكتاب أقدم المؤلفات التي نشرت لفيلبي بحسب ما هو معروف من مؤلفات فيلبي المنشورة.

والكتاب مكون من جزءين: الأول منهما في (٣٨٦) صفحة، والثاني في (٤٥٣) صفحة. وفي هذا الكتاب بجزءية جمع فيلبي بين التاريخ والجغرافيا والآثار من خلال ما أورده من معلومات عن المناطق المختلفة التي مر بها في بعض رحلاته التي قام بها في

Scanned by CamScanner

عدد من مناطق شرق ووسط وغربي الجزيرة العربية في الفترة قبيل نشر الكتاب[٥٥] .

٢ - الجزيرة العربية ؛ بلاد الوهابيين (ARABIA OF THE WAHHABIES)

ونشر هذا الكتاب في لندن عام ١٩٢٨ م. وفي هذا الكتاب الذي يبلغ عدد صفحاته (٤٣٣) صفحة، تحدث المؤلف عن تاريخ الدولة السعودية في عصورها المختلفة؛ بدءاً من تاريخ آل سعود في إمارة الدرعية والتطورات السياسية التي صاحبت حركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ونصرة آل سعود لها وتأسيس الدولة السعودية الأولى نتيجة الحلف بين الشيخ محمد بن عبدالوهاب والإمام محمد بن سعود، ثم يستمر في تتبع أخبار الدولة السعودية وتطوراتها في الدولة الأولى والدولة الثانية إلى أن يصل بالحديث إلى تاريخ الدولة السعودية في عهد الملك عبدالعزيز في مراحله المختلفة حتى زمن صدور الكتاب.

وركز فيلبي في الكتاب على علاقة الملك عبدالعزيز بالإخوان في مناطق نجد، وكيف استطاع الملك عبدالعزيز بحزمه وحكمته أن يتعامل مع تلك المعضلة الكبيرة التي واجهته جراء تعصبهم ومواقفهم المتشددة من المخترعات الحديثة [٥٦].

والكتاب - في الحقيقة - يعد أصلاً لكثير من الأعمال التاريخية اللاحقة التي كتبها فيلبي فيما بعد عن تاريخ الدولة السعودية في مراحلها المختلفة، حيث يلحظ أنه كثيراً ما بنى كتبه اللاحقة على هذا الكتاب، ثم يضيف إلى الجديد منها ما يستجد من معلومات تاريخية بحكم امتداد الزمن التاريخي للكتب الجديدة أو بحكم المعلومات الجديدة التي يحصل عليها فيلبي من اطلاعه على بعض المصادر الجديدة التي لم يطلع عليها من قبل أو بحكم المعرفة التراكمية الجديدة التي اكتسبها من خلال بقائه مدة أطول في الجزيرة العربية.

٣ - الجزيرة العربية (ARABIA).

نشر هذا الكتاب في نيويورك عام ١٩٣٠م. وفي هذا الكتاب الذي بلغت عدد صفحاته (٣٨٧) صفحة تتبع فيلبي تاريخ آل سعود والدعوة السلفية في نجد منذ

Scanned by CamScanner

انطلاقتها إلى أن وصل بالتاريخ للأحداث القريبة من تاريخ نشر الكتاب المتعلقة بتاريخ الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود - رحمه الله - وجهوده المتواصلة والكبيرة في تأسيس الدولة السعودية وتوحيدها في طورها الثالث (٥٧).

٤ - الربع الخالي (THE EMPTY QUARTER)

ونشر الكتاب في لندن عام ١٩٣٣ م. وفي هذا الكتاب الذي يبلغ عدد صفحاته (٤٣٣) صفحة قدَّم فيلبي وصفاً جغرافيا وآثارياً لرحلته المميزة التي قطعها عبر الربع الخالي التي استغرقت حوالي ثلاثة أشهر، كاد فيلبي أن يفقد فيها حياته أكثر من مرة. وقد ألحق فيلبي كتابه هذا بمجموعة من الخرائط والصور والأشكال التي توضح المعالم والآثار التي عبر بها فيلبي خلال رحلته(٥٨) .

٥ - بنات سبأ: يوميات رحلة إلى جنوب الجزيرة العربية.

(SHEBA'S DAUGHTERS : BEING A RECORD OF TRAVEL IN SOUTH REN ARABIA).

ونشر الكتاب في لندن عام ١٩٣٩م، وتبلغ صفحاته (٤٨٥) صفحة.

وبحكم أنني قد اشتركت والزميل عبدالرحمن بن عبدالله الأحمري بالمراجعة التاريخية والتعليق على الترجمة العربية لهذا الكتاب فسوف أتيح لنفسي الفرصة بالتوسع قليلا في الحديث عن هذا الكتاب وما فيه من معلومات تاريخية مهمة.

ففي هذا الكتاب قدم فيلبي وصفاً دقيقاً لأحداث الرحلة التي قام بها إلى جنوب الجزيرة العربية، ووصف المعالم التاريخية والآثار التي مر بها خلال رحلته. كما أعطى وصفاً جيداً للسكان المعاصرين ولعاداتهم وتقاليدهم وأجناسهم من خلال ما سجله في رحلته من انطباعات شخصية ومن خلال قراءاته التاريخية عن المنطقة (٥٩).

وصدَّرَ فيلبي كتابه هذا بمقدمة طويلة وضّح فيها بعض محتويات الكتاب وأسباب تأليفه، حيث يقول فيها: «... إن هذا الكتاب بحجمه الضخم هذا، ليس في الحقيقة سوى نصف كتاب. إنه سجل لأنشطتي خلال ثلاثة شهور فقط من أصل تسعة شهور

Scanned by CamScanner

استغرقتها رحلاتي في الجنوب المجهول. هذا القدر قد أخذ مني ما يربو على عام كامل لكتابته. وبعيداً عن الأمور الأخرى التي تشتت اهتمامي، فإن منظر الجنوب ما فتئ يتغير بسرعة البرق منذ أن وليت مدبراً عنه. وكان عليَّ أن أصف بعضاً من تلك التغيرات بلا تردد... »[٦٠].

وفي الفصل الأول من الكتاب قدّم فيلبي وصفا شائقًا للاستعدادات التي قام بها لتجهيز الرحلة قبل انطلاقها، والبرنامج الذي أعده لها وأهدافه من الرحلة وخط السير الذي كان مقرراً لها، ومجملاً لذلك بعد الفراغ من الرحلة [٦١].

وفي الفصل الثاني من الكتاب وصف فيلبي انطلاقة الرحلة من نجران والمواقع التي مرت بها قافلته إلى منطقة شضيف. كما ضمن الفصل الذي سماه بالخروج عددا من الرسوم والأشكال لبعض الآثار والنقوش التاريخية التي مر بها[٦١] .

وفي الفصل الثالث قدّم فيلبي وصفاً دقيقا لسير الرحلة والمواقع التاريخية والجغرافية التي مرت بها القافلة من شضيف إلى شبوة، كما أورد وصفاً لبعض الأحداث التي تعرض لها وبعض المواقف الطريفة والعسيرة التي تعرضت لها القافلة، لدرجة أنه أطلق على هذا الفصل عنوان "التيه" تعبيرا عن معاناتهم في تلك المنطقة.

وفي الفصل الرابع الذي سماه فيلبي "شبوة" يصف فيلبي أحداث الرحلة في شبوة وما حولها من المواقع والآثارالتاريخية والجغرافية ومقارنة ذلك بروايات بعض الرحالة الذين مرُّوا على تلك المناطق قبل ذلك. كما تحدث فيلبي في هذا الفصل عن المتاعب التي تعرضت لها الجمال المرافقة له في الرحلة وكيف اضطر إلى استبدال أخرى بها في هذه المحطة من الرحلة[٦٢] .

ويستمر فيلبي في سرد أحداث الرحلة ففي الفصل الخامس الذي سماه فيلبي "وادي الموت" قدم فيلبي وصفا دقيقا لأحداث رحلته من شبوة إلى حضرموت، وبالتحديد إلى هينين أول نقطة حدودية للسلطنة القعيطية وهي من سلطنات المحميات

Scanned by CamScanner

البريطانية. وعلى غرار الفصول السابقة فقد قدم فيلبي وصفا جيداً لرحلته والمواقف التي تعرض لها خلال رحلته (٦٣).

وخصص فيلبي الفصل السادس الذي عنونه بـ"فاصل" للحديث عن رحلته وإقامته في عدد من المدن والقرى الحضرمية، مثل هينين وتريم وشبام، مع بيان للأوضاع السياسية والاجتماعية فيها، ووصف متكامل للمظاهر الجغرافية التي تشتمل عليها تلك المناطق(٦٤).

وعنون فيلبي الفصل السابع من الكتاب بعنوان " القضاء والقدر"، وخصصه للحديث عن رحلته إلى شواطئ المحيط وبالتحديد إلى الشحر، وهنا يفتخر فيلبي بأنه استطاع أن يحقق أحلامه بعبور الجزيرة العربية من شمالها إلى جنوبها، بل بالغ فيلبي بإنجازه حين عد وصوله إلى شواطئ الجنوب العربي نهاية لرحلته من لندن، حيث يعبر عن ذلك الإنجاز بقوله: «وبعد أميال قليلة ألقينا أول نظرة لنا على البحر، وكان لونه رمادياً. كئيب حزين، يتحرك ببطء، وفي نفس الوقت تقريبا لمحنا منظر أسوار الشحر، وبوابتها البيضاء اللامعة تتجه للشمال. وعلى طول الطريق كان هناك خط أنابيب يحمل الماء العذب من تبالة الحارة إلى المدينة. وهكذا وبعد مسيرة عشرين ميلا بالضبط من رأس الطريق، دخلنا الشحر من أوسع أبوابها. ولأول مرة في سجلات التاريخ تم عبور شبه الجزيرة العربية من الشمال إلى الجنوب.

فالرحلة التي بدأت من ساحل البحر المتوسط، وفي الواقع كانت بدايتها الحقيقية من لندن، قد انتهت بلا حوادث على شواطئ المحيط الهندي. وباستثناء عقبة المعدي، كانت الرحلة كلها بالسيارة»(٦٥).

ومن أبرز الأحداث التي فصل فيلبي الحديث عنها في هذا الفصل بيان المعاناة التي تعرضت لها القافلة جراء تعطل السيارة الأخرى المرافقة له، ثم اضطراره للبقاء في المكلا ثلاثة أسابيع في انتظار وصول قطع الغيار لها من عدن. وكعادته في رحلاته فالوقت لم يذهب سدى عند فيلبي، فقد استغل تلك الفترة شبه الميتة من الرحلة - كما

Scanned by CamScanner

يذكر - في إجراء المزيد من الدراسات الميدانية على المنطقة وأهلها والتعرف عن قرب على أوضاعها السياسية والاجتماعية، وعن ذلك يقول: «إن إطالة مدتي المؤقتة في حضرموت والبلاد الواقعة على شاطئها على نحو غير متوقع قد وفرت لي فرصة كي أسمع وأرى أشياء في غضون تلك الفترة القصيرة التي خططت لقضائها في المنطقة، لم أكن أستطيع أن أتمنى دراستها بصورة كافية لتغطي ولو مسحا موجزا للموقف.

وحيث إنه كان أمامي ثلاثة أسابيع إضافية وليس لدي شيء مخصوص لإنجازه؛ نظراً لأنني قد تركت كل متاعي ورائي، بما فيه من كتب، ربما كان لدي متسع من الوقت الآن لقراءتها، فقد أصبح الموقف مختلفا نوعا ما، لقد سمعت كثيراً ورأيت كثيرا. وتكونت لدي آراء وآراء، بعضها مؤقت، والآخر عن اقتناع»(٦٦).

كما تحدث فيلبي في هذا الفصل عن طبيعة معاهدات الحماية البريطانية التي كانت بريطانيا تنتهجها مع المحميات البريطانية، وانتقد فيلبي الأسلوب البريطاني التعسفي في فرض تلك المعاهدات وصياغتها بنودها التي تعطي لبريطانيا حقوقا شاملة في تلك المحميات دون أن تلزمها بحقوق معتبرة للدول المحمية(٦٧).

ويواصل فيلبي نقده الحاد لبريطانيا وسياستها الاستعمارية من خلال حديثه في الفصل الثامن عن إقامته في المكلا والمراسلات الحادة التي دارت بينه وبين المندوب السامي البريطاني في عدن الذي انتقد قدوم فيلبي للمنطقة دون تنسيق مسبق مع السلطات البريطانية في المنطقة.

وبيَّن فيلبي في حديثه خيبة أمله من عدم تفاعل المندوب البريطاني مع الإنجازات التي قام فيلبي ويقوم بها آنذاك، بل أشار إلى ما هو أبعد من ذلك ، حيث إن الخلاف بينهما وصل درجة عالية بلغت بالمندوب السامي البريطاني أن يطلب من فيلبي برقياً مغادرة المنطقة بأسرع وقت.

وعن تلك الخلافات يقول فيلبي: «أصابني الإحباط وخيبة الأمل من هذا التجاوب مع إنجازي. فبالإضافة إلى البيانات غير الدقيقة بوضوح والمتعلقة بحقائق الموقف،

Scanned by CamScanner

والتي سوف أتناولها في الوقت المناسب، كان هناك لهجة تهديد خفية وبغيضة في هذه البرقية جعلتني أستاء منها »(٦٨).

وبطريقة تنم عن الذكاء والقدرة على التعبير فإن فيلبي حاول أن يفند المبررات لموقف المندوب السامي البريطاني منه، وأنه خارج الحسابات المفترضة في ميزان الخلاف بين المستعمِر والمستعمَر، حيث يقول عن ذلك: «على أي حال كنت أعلم حساسية موقفي. لقد كنت -في واقع الحال - ضيفا في إقليم معاد ، وكان المضيفون الحقيقيون لي - وهم ممثلو الحكومة العربية في المكلا - في منتهى الجمال والكرم بما يفوق قدرتي على الوصف. ولن أنسى أبداً كرم ضيافتهم ولطفهم مع غريب داخل بيوتهم، ولن أقدر أبداً على مكافأتهم والوفاء بدينهم. ولكنهم لم يكونوا سادة بالكامل في بيوتهم هم أنفسهم».

ولذلك فإن فيلبي يعود مرة أخرى وبشكل أوضح للتعبير عن استيائه من موقف بريطانيا ورجالاتها من محمياتها في البلاد العربية وزيادة التسلط الاستعماري خاصة مع تطور وسائل الحرب، وبالذات دخول الطيران في الوسائل الحربيَة لفرض الاستعمار على البلدان العزل من وسائل الدفاع، حيث يقول: «كان تاريخ هذه البوابات الجنوبية للجزيرة العربية مليئاً عن آخره بعلاقات المتسلطين ببقايا الحرب أو الأسطول البريطاني.

إن البعبع المحلي منهم يسمى رجل الحرب. والآن قد أصبح للبعبع القديم ريشاً وجناحين، وباتت المكلا على مرمى حجر في خط مستقيم من عدن».

ثم يوضح فيلبي المبررات من رغبته بقضاء مزيد من الوقت في تلك المناطق بقوله: «إنني بالتأكيد لم أكن أرغب في ترحيلي نظراً لأنه مازال أمامي الكثير الذي يجب تنفيذه وذو أهمية ومصلحة جوهرية، ولكن كان من الواضح أن الكولونيل ليك يرى مراعاة قواعد التشريفات الرسمية أشد أهمية من تقدم المعرفة».

وعلى الرغم من ذلك فإن فيلبي قد رأى أن من الحكمة عدم الانسياق وراء ذلك الجدل، وحاول الخروج بأقل الخسائر من ذلك المأزق الذي وقع فيه مع السلطات

Scanned by CamScanner

البريطانية في عدن.

ولذلك قرر فيلبي أن يغير من أسلوب الخطاب، وأن يرد على ماوصفه بـ "الغضب الشديد بإجابات رقيقة". وكان مما قاله فيلبي في برقية بعث بها إلى ليك: «أشعر بالامتنان العظيم لعرضكم الكريم لإرسال احتياجاتي، إن زيارتي لحضرموت نفسها تأتي نتيجة لأسباب قهرية لإعادة التزود بالمؤن وشراء الوقود وخلافه، وزيارتي للساحل نتيجة تعطل عمود السيارة، والذي لا يمكن إصلاحه محلياً. وهذه أول فرصة للاتصال معكم والتي استفدت منها تماما هنا؛ نظرا لتعطل الاتصالات فيما بقي من منطقة المحمية. وبصرف النظر عن حضرموت فإن الرحلة كلها تقع في إقليم غير مكتشف وبغير حدود، ووضعه السياسي لا يمكن أن أناقشه فلست مؤهلا لذلك».

وبعد ذلك أفصح فيلبي عن بعض مشاعره تجاه ليك، وأبدى امتعاضه من مواقفه وخطاباته السابقة إليه، وعبر عن حقيقة رحلته والمرافقين له بقوله: «إنني أستنكر مثل هذه المناقشة بكل احترام. إن جماعتي ليس لها صفة رسمية أياً كانت، قد تم تنظيمها بصورة حتمية في نجران. كما أنها تنتظر عودتي إلى شبوة لاستئناف الرحلة التي توقفت على نحو مشؤوم. إنني أخطط بصورة غامضة للاتجاه صوب بيحان ثم أشق طريقي شمالاً خلال الحزام الرملي حتى نجران»(٦٩).

ويستمر فيلبي في هذا الفصل في بيان تفاعلات الخلاف بينه وبين السلطات البريطانية في عدن، ويروي كيف تطور الأمر إلى أن أصدرت السلطات البريطانية في عدن في مجلتها الرسمية "عدن جازيت" وبعد التفاهم مع السلطات البريطانية في لندن بياناً عاماً تحذر فيه من رحلة فيلبي، وتوضح أنه لا يحمل تصريحاً من السلطات البريطانية يخوله القيام بهذه الرحلة داخل محمياتها في الجنوب العربي. ومما جاء في البيان ما يأتي:

«لقد دخل أحد الرعايا البريطانيين ويدعى السيد هـ. سانت جي. فيلبي مؤخراً أقاليم حضرموت، وهو متخفٍ في ثياب عربية ومصحوبٌ بقوات سعودية. وعلى الرغم

Scanned by CamScanner

من أنه قيل بصورة عامة في المحميات أن رحلته لحضرموت تنفذ بموجب تصريح من حكومة صاحب الجلالة، إلا أننا نعلن للعموم تبعاً لذلك أنه لم يصدر أي تصريح مهما كان للسيد فيلبي لإجراء أسفاره في المحميات، وأن حكومة صاحب الجلالة لم تعتمد بأي طريقة كانت أي من التصريحات التي أدلى بها هناك طبقا لما ورد في التقارير التي رفعها الزعماء»(٧٠).

وفي الفصل التاسع واصل فيلبي الحديث عن رحلته ووصف جغرافية الأماكن التي مر بها وسكان تلك الأماكن وتاريخها، حيث خصص فيلبي هذا الفصل للحديث عن الشحر بعد أن توقف في الفصل الذي قبله للحديث عن الأحوال السياسية.

وعنون فيلبي الفصل العاشر بعنوان "طريق الحج" حيث ذكر تطلعات الناس واهتماماتهم بطريق بري للحج من حضرموت إلى مكة المكرمة عبر الطرق البرية التي عبرت الرحلة خلالها.

وفي الفصل الحادي عشر واصل فيلبي الحديث عن رحلته في مناطق بعض المحميات الأخرى وبالذات في منطقتي العوالق وبيحان، ووصف الأحوال الاجتماعية والاقتصادية فيها. كما أفاض فيلبي في هذا الفصل بالحديث عن الأحوال السياسية في العوالق وبيحان، وذكر ما دار بينه وبين الزعماء في البلدين من حوارات سياسية عن الأوضاع السياسية العامة في المحميات البريطانية في الجنوب العربي وعن العلاقات بين تلك المحميات والنقد الموجه للبريطانيين في التدخل في شؤون تلك المحميات.

وختم فيلبي هذا الفصل بالحديث عن علاقته بإحدى الفتيات هناك، وتدعى "محسنة"، وروى قصة غرامه بها وكيف تطورت الأمور بينهما إلى درجة كبيرة همَّ فيلبي خلالها بالزواج من تلك الفتاة، وكيف ظل يتذكرها حتى وقت طويل بعد عودته من رحلته.

وفي الفصل الثاني عشر وعنوانه "أرض سبأ"، وصف فيلبي مسار رحلته في عدد من المدن والقرى في أرض سبأ مثل صرواح ومأرب وزغوان وخربة أبي السعود، ووصف

Scanned by CamScanner

أحوال البلاد والسكان الاجتماعية والاقتصادية، كما وصف الجبال والأودية والشعاب التي مر بها وصفا جغرافيا وتاريخياً جيداً .

وفي هذا الفصل ذكر فيلبي معاناته مع أهل المنطقة وما تعرض له من مضايقات من بعض الأهالي، كما أسهب فليبي في الحديث عن مشكلة السيارة التي كانت قد تعرضت للعطل من قبل، وكيف تطورت المسألة إلى أن تعطلت تماماً في هذه المنطقة، وفقد الأمل بإصلاحها حتى اضطرفيلبي في النهاية أن يتركها إلى الأبد.

كما بين فيلبي في هذا الفصل شيئاً من الممارسات التي كان يقوم بها البريطانيون وغيرهم من الأوربيين وهي عملية نقل الآثار التاريخية من المنطقة إلى المتاحف الأوربية مثل المتحف البريطاني في لندن. وهي من الآثار التي ما تزال موجودة إلى يومنا الحاضر في هذه المتاحف؛ لتحكي تاريخ الحضارات التاريخية السالفة من جهة، ولتحكي في الوقت نفسه تناقض المستعمرين مع أنفسهم ومع المبادئ الزائفة التي يدعونها ويتناغمون بالمناداة بها، ناسين أو متجاهلين أن كثيراً مما يفاخرون به في متاحفهم من شواهد للحضارات أو التحضر ماهو إلا صنائع ونتاج لتلك المراحل الاستعمارية وذلك النهب الذي مارسوه في البلدان التي يصفونها ببلدان العالم الثالث أو الدول النامية.

وعنون فيلبي الفصل الثالث عشر والأخير من الكتاب بعنوان سماه "رحلة العودة"، وصف فيه ما تبقى من رحلة العودة عبر نجران محط الرحال مرة أخرى في السادس والعشرين من يوليو، وهي المدينة التي كانت الرحلة قد انطلقت منها في البداية في الحادي عشر من أكتوبر من العام السابق، وبمعنى آخر فإن الرحلة تكون قد استغرقت من فيلبي أكثر من تسعة أشهر كان فيها ما فيها من المتعة والترحال والمعاناة والمفاجآت المصحوبة بالرصد التاريخي الجميل من شخص متمرس في كل ذلك.

وألحق فيلبي كتابه بملحق شمل رسوماً وبيانات توضيحية لعدد من النقوش التاريخية التي اكتشفها أو عبر بها فيلبي، وقد كتبت هذه النقوش بلغاتها الأصلية مع

Scanned by CamScanner

ترجمات توضيحية من أحد المختصين لمحتوياتها ومقارنة ذلك ببعض الكتابات التاريخية المشابهة.

٦ - حاج في الجزيرة العربية (A PILGRIM IN ARABIA)

نشر هذا الكتاب في لندن لأول مرة عام ١٩٤٣م، ثم أعيد طبعه مرة أخرى بعد ثلاث سنوات، وبالتحديد عام ١٩٤٦م، ومقارنة بغيره من مؤلفات فيلبي الأخرى يعد هذا الكتاب من أقصر مؤلفات فيلبي حيث بلغ (١٩٨) صفحة فقط.

وفي هذا الكتاب روى فيلبي قصة العشرين عاما التي أمضاها في الجزيرة العربية، كما ركز الحديث عن رحلته التي قام بها للحج بعد اعتناقه الإسلام عام ١٩٣١م ، ووصف فيه الحج في تلك السنة والمشاعر المقدسة التي مر بها خلال رحلته في المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة، مع ذكر شيء من تاريخ تلك المشاعر والمساجد التاريخية التي تحدث فيها خلال الكتاب.

كما سجل فيلبي في الكتاب شيئاً من تاريخ بعض الأماكن الأخرى في الجزيرة العربية، وبالذات عن الرياض.

وقد جاء الكتاب في عدة مباحث بدأها بالمقدمة، ثم أفرد فصلاً عن الحج إلى مكة المكرمة، ثم فصلاً عن المدينة المنورة حيث أضاف إليه تفاصيل رحلتين لاحقتين قام بهما إلى المدينة المنورة عام ١٩٣٥م وعام ١٩٣٨م، ثم الرياض التي أطلق عليها اسم (ملكة الصحراء)، وطعم فيلبي كتابه هذا ببعض الصور التي التقطها خلال تلك الفترة وخاصة في مكة المكرمة والمدينة المنورة والمشاعر المقدسة في عرفات ومنى ومزدلفة وغيرها من الصور في بعض المناطق الأخرى والتي تزيد من أهمية الانطباعات المكتوبة عنها، وتدعم الحديث حولها(٧١).

وتجدر الإشارة إلى أن الكتاب سيصدر مترجماً إلى اللغة العربية عن طريق مكتبة العبيكان بالرياض التي تولت أمور الترجمة في سياق السلسلة التي ستصدرها من أعمال فيلبي، في حين قام الدكتور محمد بن سليمان الخضيري من قسم التاريخ

Scanned by CamScanner

والحضارة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بمراجعة الترجمة العربية وتدقيقها والتعليق على ثنايا الكتاب بما يستحق التعليق.

ويقول الدكتورالخضيري عن الكتاب بشكل مجمل: «هذا الكتاب يعبر عن تجربة حقيقية في الجزيرة العربية، كما أن المؤلف حرص على معرفة كل ما يمر به من أماكن، وكان يستعين بدليل من أهل البلد؛ لكي يعرف كل صغيرة وكبيرة، كما أن في الكتاب شرحاً دقيق عن أعمال الحج وعن الحالة في مكة المكرمة في وقت الحج وعن مجهودات الملك عبدالعزيز لتسهيل أمور الحج»(٧٢).

٧ - خلفية الإسلام (BACKGROUND OF ISLAM)

نشر الكتاب في الإسكندرية عام ١٩٤٧م، وهو كذلك من الكتب القصيرة التي كتبها فيلبي، حيث بلغت صفحاته (١٥٢) صفحة فقط.

وهو من الكتب التي جمع فيها فيلبي بين التاريخ والآثار، حيث سرد فيلبي في هذا الكتاب تاريخ خمسة قرون تاريخية سبقت قيام البعثة النبوية في مكة المكرمة.

واعتمد فيلبي في كتابه هذا على عدد ضخم من النقوش الأثرية التي عثر عليها خلال رحلاته في مناطق الجزيرة العربية، والتي قام بدراستها وقراءة نصوصها وترجمتها إلى اللغة الإنجليزية ونشر جزء منها خلال دراسته التاريخية هذه عن الجزيرة العربية قبل الإسلام(٧٣).

٨ - الأيام العربية (ARABIAN DAYS) .

نشر هذا الكتاب في لندن عام ١٩٤٨م. ويمثل سيرة ذاتية كتبها فيلبي عن نفسه.

ففي هذا الكتاب الذي يبلغ عدد صفحاته (٣٣٦) صفحة روى وكتب فيلبي قصة حياته منذ طفولته في بريطانيا إلى الفترة التي نشر فيها الكتاب والتي كان يعيش فيها شيئاً من أيامه الذهبية في الجزيرة العربية وفق رعاية خاصة من الملك عبدالعزيز، رحمه الله(٧٤).

Scanned by CamScanner

٩ - النجود العربية (ARABIAN HIGHLANDS)

نشر هذا الكتاب في نيويورك في عام ١٩٥٢م، وهو من الأعمال الميدانية الكبيرة التي جمع فيها فيلبي بين الدراسات التاريخية المعاصرة والدراسات الآثارية القديمة.

ففي هذا الكتاب البالغ عدد صفحاته (٧٧١) صفحة سجل فيلبي وصفاً تاريخيا وجغرافيا لمناطق جنوب غربي الجزيرة العربية ومرتفعاتها وسكانها وآثارها من واقع الرحلة الشخصية التي قام بها إلى تلك المناطق التي استغرقت تسعة أشهر من عامي ١٩٣٦ و ١٩٣٧م(٧٥).

وبالرغم من أن فيلبي قام بتلك الرحلة بتكليف من الملك عبدالعزيز - رحمه الله - لإعداد خرائط مفصلة للمنطقة وبخاصة المنطقة الحدودية ما بين المملكة العربية السعودية واليمن إثر الاتفاق الحدودي بين البلدين عام ١٩٣٤م، إلا أنها لا تخرج في الحقيقة عن المسار الذي كان فيلبي يقوم به في الترحال في أرجاء الجزيرة العربية شمالها وجنوبها وغربها وشرقها.

والكتاب من المصادر التاريخية المهمة التي تتناول موضوعات في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والجغرافيا التاريخية، وهو من الكتب التي قامت مكتبة العبيكان بالرياض بترجمتها إلى اللغة العربية، وجار العمل على إصداره ضمن إصدارات الدار، حيث قام الدكتور عبدالله العبدالجبار بمراجعة الترجمة والتعليق على الكتاب.

وعن هذا الكتاب يقول الدكتور العبدالجبار:

«يعد كتاب "مرتفعات جزيرة العرب" من أضخم مؤلفات هذا الرحالة والسياسي المخضرم عن الجزيرة العربية، وهو عبارة عن مادة علمية ضخمة تحصل عليها عن طريق المشاهدات والتجارب المثيرة التي مر بها خلال زيارته الطويلة التي استغرقت تسعة أشهر في المناطق الجنوبية الغربية من المملكة العربية السعودية والمناطق الحدودية في تلك الجهات مع اليمن. تلك المناطق التي تشتهر بالكثافة السكانية والتباين الجغرافي

Scanned by CamScanner

والمناخي الكبير؛ مما أدى إلى ظهور هذه المادة العلمية الضخمة التي تثري نهم المتعطشين للمعرفة وفي جميع الحقول»[٧٦].

ولضخامة الكتاب فقد قسمه فيلبي إلى أبواب ستة، ووضع تحت كل باب من الأبواب فصولاً بلغت في مجموعها ثلاثة وثلاثين فصلاً، ويختص كل فصل منها بموضوع معين. كما ألحق الكتاب بأربعة ملاحق، شملت معلومات وخرائط وصور تشرح وتوضح المزيد عما ورد في بعض فصول الكتاب من معلومات.

واحتوى الباب الأول على عدد من الفصول التي تتناول الطريق الذي سلكه من وادي الدواسر قادما من الربع الخالي في طريقه إلى مكة المكرمة عبر وادي بيشة لمقابلة الملك عبدالعزيز - رحمه الله - والاستعداد لرحلة طويلة استغرقت تسعة أشهر.

وفي الباب الثاني تحدث فيلبي عن مخيم الملك عبدالعزيز في مكة المكرمة، كما وصف الطرق والأماكن التي زارها قبل وصوله مكة المكرمة عبر الخرمة. وفي هذا الباب بدأ فيلبي بوصف دقيق للطريق إلى الجنوب بعد مساره من مكة المكرمة، حيث تحدث عن أودية رنية وبيشة ومدينة خميس مشيط ومرتفعات عسير ووادي تثليث.

وخصص فيلبي الباب الثالث من الكتاب للحديث بإسهاب عن بلاد يام أو منطقة نجران، حيث وصف تلك المناطق وتاريخها القديم والحديث مع وصف دقيق لبعض المواضع التاريخية فيها.

وفي الباب الرابع من الكتاب واصل فيلبي الحديث عن الرحلة، فكتب وصفا لوادي الحبونة والأجزاء العليا من وادي تثليث والمواقع الحدودية، وخصص فصلا من الباب للحديث عن تاريخ المكارمة ومعتقدهم الديني. وبالرغم من أن الباب الخامس جاء عن مرتفعات تهامة، فقد قدم فيه فيلبي وصفا جميلا لوادي بيش ومنطقة صبيا ومدينة جيزان إضافة إلى الحديث عن جبال تهامة والمناطق الحدودية بينها وبين اليمن من تلك الجهات. وخصص فيلبي الباب السادس والأخير من الكتاب للحديث عن مناطق سهول تهامة والحدود الساحلية مع وصف لسواحل منطقة جيزان وكذلك الطريق الساحلي إلى منطقة القنفذة.

Scanned by CamScanner

فالكتاب بشكل شامل، وكما يذكر الدكتور العبدالجبار في تقديمه له: «يعطي وصفاً أنثربولوجيا للمجتمعات التي احتك بها فيلبي مع وصف للعادات والتقاليد ومقومات المعيشة السائدة في كل مجتمع حضري وبدوي طاف به. كما قارن فيلبي بين تاريخ المنطقة القديم والتطور الذي حدث فيها بعد الحكم السعودي خاصة في مجال استتباب الأمن والقضاء على الصراعات القبلية الدموية التي كانت سائدة قبل ذلك»[٧٧].

١٠ - اليوبيل الذهبي للجزيرة العربية. (ARABIAN JUBILEE)

وصدر هذا الكتاب في لندن بمناسبة مرور خمسين عاما على تأسيس المملكة العربية السعودية عام ١٩٥٢م، وذلك بجعل التاريخ الميلادي أساساً في حساب السنين منذ استرداد الرياض وبداية رحلة التأسيس على يد الملك عبدالعزيز - رحمه الله - أي في عام ١٩٠٢م.

وفي هذا الكتاب الذي يبلغ عدد صفحاته (٢٨٠) صفحة سجل فيلبي - من واقع مشاهداته وانطباعاته الشخصية، ومن واقع صناعته لبعض الأحداث - تاريخ المملكة العربية السعودية عامة وعلاقاتها الخارجية مع بريطانيا ومع غيرها من البلدان والدول المجاورة، وتتبع فيلبي بصفة خاصة تاريخ المؤسس الملك عبدالعزيز وتحركاته منذ انطلاقته في رحلة التأسيس إلى أن أكمل بناء الدولة، وانصرف لتطوير الأوضاع المختلفة فيها على مدى خمسين عاما من عمر المملكة العربية السعودية[٧٨].

وهذا الكتاب من الكتب القلائل لفيلبي التي ترجمت إلى اللغة العربية، وقام على ذلك الأستاذ مصطفى كمال فايد بمتابعة من الشيخ عبدالرؤف الصبان، ونشرت الترجمة العربية البالغ عدد صفحاتها (٣٨٥) صفحة في القاهرة عام ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م[٧٩].

١١ - العربية السعودية (SA'UDI ARABIA)

نشر هذا الكتاب في لندن عام ١٩٥٥م . والكتاب مكون من أحد عشر فصلاً متوازنة إلى حد ما، تناول المؤلف فيها تاريخ آل سعود منذ استقرارهم في الدرعية في أواسط القرن التاسع الهجري ومرورا بتأسيس إمارتهم فيها وتطورها إلى دولة بعد

Scanned by CamScanner

التحالف بين آل سعود والشيخ محمد بن عبدالوهاب في أواسط القرن الثاني عشر الهجري، والتطور السياسي الذي شهدت الدولة في أطوارها الثلاثة إلى نهاية عهد مؤسس المملكة العربية السعودية ؛ الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل فيصل، طيب الله ثراه وغفر له ولوالديه.

وهذا الكتاب من الكتب التي قضيت معها وقتاً طويلاً، إذ إنه من الكتب التي ستصدر عن مكتبة العبيكان بالرياض بعد أن تمت ترجمته من قبل الدكتور عاطف فالح يوسف من قسم اللغات والترجمة في جامعة الملك سعود بالرياض، وقمت بمراجعة النسخة المترجمة من الكتاب مراجعة علمية تاريخية، مع التعليق على بعض النقاط التي رأيت أنها تحتاج إلى تعليق.

وحيث إن الغرض من ترجمة الكتاب ونشره باللغة العربية نقل وجهات النظر تلك كما رآها وسطرها المؤلف كاملة إلى القارئ العربي وتقريبها إليه بأبسط صورة ودون تعقيد فقد التزمت خلال مراجعتي للكتاب بمنهج علمي واضح بترك النص الأصلي دون تدخل، وللغرض نفسه فقد حاولت جاهداً أن أحصر التعليقات على بعض النقاط في أضيق نطاق ممكن؛ كي لا تخرج الترجمة عن أهدافها. ولطول المدة التي قضيتها مع هذا الكتاب فسأعطي لنفسي فرصة الاسترسال عن هذا الكتاب ومحاوره، مع بيان لأهميته للمؤرخين والباحثين والقراء على حد سواء.

فقد خصص المؤلف الفصل الأول من الكتاب للحديث عن تاريخ آل سعود وعلاقاتهم السياسية والإدارية بالتكتلات السياسية المتناثرة في وسط الجزيرة العربية منذ استقرارهم في الدرعية إلى الفترة قبيل قيام الدولة السعودية الأولى في منتصف القرن الثاني عشر الهجري.

أما الفصل الثاني فتحدث فيه المؤلف عن تاريخ الدولة في زمن مؤسسها الإمام محمد بن سعود، وتتبع الأحداث منذ البداية إلى نهاية عهده - رحمه الله - في ١١٧٩هـ / ١٧٦٥ م.

Scanned by CamScanner

وفي الفصل الثالث واصل المؤلف الحديث عن تاريخ الدولة السعودية في عهد أحد أبرز رجالاتها وهو الإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود الذي امتد حكمه طويلاً إلى أن قتل - رحمه الله - غيلة وهو ساجد يصلي صلاة العصر في الدرعية عام ١٢١٨هـ / ١٨٠٣م .

وعلى النسق نفسه خصص المؤلف الفصل الرابع للحديث عن الإمام سعود بن عبدالعزيز الذي واصلت الدولة السعودية في عهده اتساعها وتطورها واستقرارها، والذي في عهده كذلك بدأت معاناة الدولة من التدخل العثماني عن طريق القوات المصرية، واستمر المؤلف بسرد أحداث تلك الفترة في هذا الفصل إلى نهاية عهد الإمام سعود بن عبدالعزيز بوفاته - رحمه الله - عام ١٢٢٩هـ / ١٨١٤م.

وفي الفصل الخامس واصل المؤلف الحديث عن تاريخ الدولة، وسير الأحداث فيها، والضغوط المصرية في عهد الإمام عبدالله بن سعود الذي اضطر في النهاية للتسليم للقوات المصرية ؛ بقيادة إبراهيم باشا. حيث أنهى المؤلف هذا الفصل بالحديث عن كيفية استسلام الإمام عبدالله وهدم الدرعية من قبل إبراهيم باشا في عام ١٢٣٣هـ / ١٨١٨م، وبه انتهى فصل مهم في تاريخ آل سعود، وانتهى طور من أطوارها التاريخية.

وبدأ المؤلف الفصل السادس من الكتاب بتتبع محاولة محمد بن مشاري بن معمر تولي الزعامة في نجد، وإقامة سلطة جديدة على أنقاض السلطة السعودية السابقة، ثم تتبع بعد ذلك الصراع السياسي والعسكري الذي دار بينه وبين مشاري بن سعود الذي نازعه السلطة، وكيف كان ذلك الصراع يصب في مصلحة الإمام تركي بن عبدالله ابن الإمام محمد بن سعود الذي استطاع في النهاية أن يصل إلى سدة الحكم، وأن يقيم دولة آل سعود راسخة وقوية في الجزيرة العربية من جديد.

ولذلك يرى كثير من المؤرخين أن الإمام تركي هو المؤسس الحقيقي للدولة السعودية الثانية[٨٠]. والذي استقر له الحكم بسيطرته على الرياض، واتخاذها لأول مرة مقراً

Scanned by CamScanner

للدولة السعودية العائدة من جديد في عام ١٢٤٠هـ / ١٨٢٤م إلى أن قتل فيها غيلة - رحمه الله- في أواخر عام ١٢٤٩هـ / ١٨٣٤م.

وخصص المؤلف الفصل السابع للحديث عن تاريخ الإمام فيصل بن تركي الذي بادر بالقضاء على قاتل والده ،وتسلم الحكم بعد أربعين يوماً فقط من اغتياله، وكان ذلك في مطلع عام ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م.

وخلال هذا الفصل تتبع المؤلف تاريخ الإمام فيصل بفترتيه الأولى والثانية، كما ركز المؤلف الحديث على العلاقات الخارجية للدولة السعودية في عهد الإمام فيصل، إلا أنه لم يتحدث - كما يفترض - عن رحلة المقيم البريطاني في الخليج الكولونيل لويس بلي إلى الرياض رغم أهميتها التاريخية. ورغم أنه بنفسه في نهاية الفصل قد أشار إلى استغرابه من عدم حديث المصادر المحلية عن الرحلة.

ولعل هذا مما يدعونا إلى القناعة بأن فيلبي قد وقع بالفعل أسيراً للمصادر المحلية التي تحدثت عن تاريخ تلك الفترة، ولم يحاول الخروج عن الخط الذي سارت عليه، وهذا مما يؤخذ على مؤرخ مثل فيلبي يمتلك الخبرة والمعلومات التاريخية التي يفترض فيها أن تظهر في مثل هذه الموضوعات، وبخاصة أن الأمر يتصل بالعلاقات السعودية البريطانية التي خاض فيلبي غمارها، اللهم إلا إذا كان فيلبي قد ترك عن قصد الخوض في تفصيلات مثل تلك الرحلات، كرحلة بلي وغيرها من الرحلات الرسمية المشابهة.

وفي الفصل الثامن تابع فيلبي الحديث عن تاريخ الدولة السعودية الثانية خلال الفترة التالية لحكم الإمام فيصل بن تركي، وتتبع في هذا الفصل الصراعات التي دارت بين أبنائه وكيف أدت تلك الظروف إلى نهاية الدولة السعودية الثانية وظهور بعض القوى الجديدة على حسابها.

وفي الفصل التاسع يبدأ فيلبي الحديث عن مرحلة جديدة من تاريخ الدولة السعودية في عهد مؤسسها وباني وحدتها الملك عبدالعزيز، طيب الله ثراه.

وخص فيلبي هذا الفصل بعدد من موضوعات الوحدة السعودية، حيث بدأها بالحديث عن انطلاقة الملك عبدالعزيز في مسيرة التوحيد الطويلة باسترداد الرياض في

Scanned by CamScanner

شوال من عام ١٣١٩هـ / ١٩٠٢م، ثم واصل الحديث عن ضم الملك عبدالعزيز معظم مناطق نجد وضم المنطقة الشرقية، وكيف وقف بقواته على أعتاب حائل؛ ليضمها إلى حكمه.

ثم واصل فيلبي تحليله في الفصل الذي يليه بعنوان "التوسع والاستقرار" الحديث عن معارك التوحيد التي قام بها الملك عبدالعزيز لضم بقية المناطق في نجد والحجاز وجنوب الجزيرة العربية إلى دولته التي أطلق عليها "المملكة العربية السعودية" بعد تلك الملحمة الوطنية الرائدة التي قام بها الملك عبدالعزيز، رحمه الله.

وفي الفصل نفسه تتبع فيلبي علاقة الملك عبدالعزيز ببعض أنصاره السابقين من الإخوان الذين تحول بعضهم - نتيجة تعصبهم ومواقفهم الغريبة من المستجدات الحديثة، ونتيجة إصراراهم على بعض مواقفهم السياسية المحرجة للدولة مع بعض الدول الأخرى المجاورة - إلى أعداء، وكيف استطاع الملك عبدالعزيز بحكمته وحنكته السياسية وحزمه أن يجنب البلاد تلك العقبة الجديدة التي كادت أن تعصف بالوحدة الوطنية والاستقرار الذي عمل الملك عبدالعزيز طويلا من أجله.

وختم فيلبي كتابه بالفصل الحادي عشر الذي خصصه للحديث عمّا أسماه بعهد الرخاء، وهي المرحلة التي تلت مرحلة حروب الوحدة الوطنية وجهود الاستقرار التي خاضها الملك عبدالعزيز في سبيل ذلك، وتتميز المرحلة الأخيرة بظهور بوادر الرخاء الاقتصادي التي بدأت المملكة العربية العودية تنعم في ظلها الوافر، خاصة بعد أن أنعم الله على البلاد بظهور النفط، وتدفق إنتاجه على مستوى حسن من مستوى الأوضاع الاقتصادية الصعبة التي كانت البلاد تعاني منها، لاسيما مع إصرار الملك عبدالعزيز على المضي قدما في خطة الإصلاحات الشاملة التي بدأها بمجرد استقرار الأوضاع السياسية والأمنية.

وبإيجاز يمكن القول: إن الكتاب الذي بين أيدينا عبارة عن سجل موسوعي وموضوعي متسلسل للتاريخ السعودي بمراحله المتتالية بدءاً بتأسيس إمارة آل سعود

Scanned by CamScanner

في الدرعية وانتهاءً بنهاية عهد مؤسس الدولة السعودية الحديثة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود طيب الله ثراه.

ولعلنا لذلك نقول: إن الكتاب - وبدون مبالغة - أشبه ما يكون بقصة أو رواية مترابطة الأحداث شيقة السرد، تبدأ بتتبع أحداثها بالفصل الأول، وربما يضطرك شوق المعرفة إلى متابعتها والاستمرار معها إلى الفصل الأخير.

أهمية الكتاب :

يعد هذا الكتاب من المؤلفات المهمة والمصادر البارزة في التاريخ السعودي. وتأتي أهمية الكتاب في نظري من عاملين مهمين:

الأول: الخبرة والدراية التاريخية والسياسية التي تميز بها المؤلف، ومعاصرته، بل ومشاركته في صناعة كثير من أحداث التاريخ السعودي الحديث.

الثاني: من حيث أهمية المحاور التي طرقها المؤلف خاصة في الفصول الأخيرة التي تتحدث عن جوانب التطور السياسي والإداري للمملكة العربية السعودية، والتي لم تنل حظها من المؤرخين.

وبالرغم مما ذكرته من أهمية عن الكتاب، فإنني أرى أن أستدرك وأقول من جانب آخر بأنني ومن خلال قراءتي المتأنية لهذا الكتاب وتصور نوعية القراء الذين سيطلعون عليه بطبعته الإنجليزية وبطبعته المترجمة إلى العربية، يبدو لي أن هذا الكتاب يأتي في عداد الكتب التاريخية التي يصعب إعطاء حكم عام عليها من حيث الأهمية.

ففي أجزاء منه ربما لا يعطي الكتاب أي جديد لنوعية من القراء بإحدى اللغتين، وفي أجزاء أخرى قد يعد في غاية الأهمية لهؤلاء القراء أنفسهم، وربما كان العكس صحيحاً بالنسبة لبعض الأجزاء الأخرى من الكتاب، وهكذا.

ويعود السبب في الوصول إلى هذه الحقيقة - في اعتقادي - إلى وأحد أو أكثر من العوامل الآتية:

Scanned by CamScanner

أولاً : أن الكتاب لا يختص بتاريخ فترة معينة من التاريخ السعودي أو بتاريخ شخصية من الشخصيات السياسية أو الاجتماعية أو غيرها، بل هو من الكتب التاريخية الشاملة للتاريخ السعودي منذ بداية تكوين الإمارة السعودية في نجد وتطورها إلى دولة، ثم تاريخ هذه الدولة في أطوارها التاريخية الثلاثة.

ولذلك فإن صفة المعاصرة للمؤلف - وهو هنا فيلبي - لا تنطبق إلا على الفصول الأخيرة من الكتاب، وبالتحديد فترة تاريخ الملك عبدالعزيز.

وبمعنى آخر فإن أهمية الكتاب تبرزبشكل جلي في تاريخ هذه الفترة التي عاصر وعايش فيها المؤلف الأحداث، بل ربما شارك في صناعة الكثير من جوانبها.

ثانياً: ومن العوامل التي تجعل أهمية الكتاب متفاوتة يتمثل في نوعية القراء، بحسب اللغة المطبوعة، فبالنسبة للقراء باللغة العربية فإني أعتقد جازماً أن الفصول الأولى من الكتاب، علاوة على ماذكرناه سابقاً من حيث عدم أهميتها لعدم معاصرة فيلبي للأحداث، فإنها أيضاً ربما لا تضيف لهم جديداً لاعتماد فيلبي في جلها على المصادر المحلية العربية المعروفة والمتداولة بيسر بين القراء العرب، مثل تواريخ ابن غنام وابن بشر وابن عيسى وابن ناصر. وكما قيل: إذا حضر الماء بطل التيمم.

ومن جانب آخر فإن تلك الأقسام الأولى تبدو في غاية الأهمية للقارئ الانجليزي؛ أي في الطبعة الإنجليزية من الكتاب، حيث أتاح فيلبي باعتماده على تلك المصادر المحلية العربية للقارئ فرصة الاطلاع على محتويات تلك المصادر، ومن ثمّ فرصة تتبع التاريخ المحلي للجزيرة العربية من واقع مصادره المحلية العربية التي ربما لا تتاح له، وإن أتيحت له فربما وجد صعوبة في التعامل معها.

ثالثاً: ومن العوامل التي تقلل من أهمية الكتاب ما يؤخذ على مؤلفه من وقوعه أسيراً للمصادر المحلية التي استقى منها معلوماته في الفصول الأولى من الكتاب دون إعمال - في بعض المواقف - لقدراته العلمية والتاريخية المميزة التي يفترض فيها أن تجعل منه مؤرخاً قارئاً ومحللاً لتلك الأحداث أكثر من كونه ناقلاً لمحتوياتها من تلك المصادر.

Scanned by CamScanner

ونستطيع لذلك أن نجمل القول عن أهمية الكتاب بالقول: إن الكتاب في ترجمته العربية مهم في فصوله الأخيرة للقراء العرب لمعاصرة المؤلف للأحداث. وهو لغيرهم وفي طبعته الإنجليزية مهم في غالبية فصوله للمعاصرة عند المؤلف في فصوله الأخيرة، ولاعتماده على المصادر المحلية في أوائلها.

وأخيراً أختم حديثي عن الكتاب بالإشارة والتأكيد على أن الكتاب مثله مثل غيره من المؤلفات التاريخية المختلفة يحمل ويمثل وجهة نظر مؤلفه، وليس بالضرورة أن تكون تلك الوجهة هي الرأي الذي نؤمن به أو نتبناه، فلكل مؤرخ الحق باتخاذ ما يراه أو يميل إليه من وجهات النظر، خاصة إذا كان الأمر مما يحتمل الاختلاف في وجهات النظر.

١٢ - أربعون عاماً في القفار(FOURTY YEARS IN THE WILDERNESS)

وفي هذا الكتاب الصادر في لندن عام ١٩٥٧م أعاد فيلبي نشر كثير مما نشره في كتبه السابقة عن حياته الشخصية، ونشاطاته المختلفة في الجزيرة العربية، مع تتبع آخر لتاريخ المملكة العربية وتطور الأحداث فيها خلال الأربعين عاما هي الفترة ما بين عام ١٩١٧م، أي منذ بدأ فيلبي نشاطاته في الجزيرة العربية إلى أن يقترب بالأحداث من عام ١٩٥٧م وهو تاريخ صدور الكتاب(٨١).

وبالإضافة إلى تلك المؤلفات المنشورة التي كتبها فيلبي، فقد كتب فيلبي عدداً كبيراً من المقالات والأبحاث التي نشرت في عدد من المجلات والدوريات التي كانت تصدر في تلك الفترة في بريطانيا وفي مصر وغيرها.

وقد قامت الباحثة اليزابيث مونرو كذلك بعمل حصر وراقي لأكثر من خمسين مقالة من كتابات فيلبي المختلفة، وألحقت قائمة بذلك في نهاية عملها عن حياة فيلبي(٨٢).

Scanned by CamScanner

وصنفت مونروالقائمة وفق محاور الموضوعات التي تناولتها كتابات فيلبي، وكانت بحسب التصنيف الآتي:

١- مقالات عن رحلاته في صحراء الجزيرة العربية.

٢- مقالات عن تطوير أو مناقشة لرحلات قام بها غيره.

٣- مقالات عن التاريخ الحديث لشبه الجزيرة العربية.

٤- مقالات عن العلاقات العربية الإنجليزية.

٥- مقالات عن الإسلام.

٦- مقالات عن الفترة ما قبل الإسلام.

٧- مقالات لموضوعات متعددة.

بالإضافة إلى المؤلفات التاريخية العامة التي نشرت لفيلبي يوجد عدد من المؤلفات والبحوث التي لم تنشر، التي بقيت محفوظة في أوراق فيلبي الخاصة المحفوظة في كلية سانت انتوني في أكسفورد. (ST. ANTONY'S COLLEGE, OX-FORD). وقد قامت الباحثة اليزابيث مونرو بتتبع تلك الأوراق، ثم قامت بعمل حصر وراقي لها وأوردت قائمة بأكثر من عشرة مؤلفات لم تنشر ألحقتها في نهاية دراستها أعدتها عن حياة فيلبي(٨٣).

كما يوجد من بين تلك الأوراق وثائق كبيرة جداً، جمعها فيلبي أثناء حياته ومراسلاته الشخصية ويومياته، ويعمل على إعداد هذه الأوراق للنشر الدكتور فهد بن عبدالله السماري الذي اطلع منذ فترة على تلك الأوراق وقام بدراستها. وسوف تضيف هذه الأوراق التي ستنشر لأول مرة مصدراً جديداً عن أعمال فيلبي ذات العلاقة بالجزيرة العربية.

ثانياً: الأوراق والتقارير الرسمية:

علاوة على تلك المؤلفات المنشورة وغير المنشورة فقد سطر فيلبي عددا من التقارير والمراسلات الرسمية التي كتبها فيلبي ورفعها إلى الجهات البريطانية من واقع بعض المهمات الرسمية التي كلف بها في شبه الجزيرة العربية.

Scanned by CamScanner

وتعد التقارير التي كتبها فيلبي من المصادر التاريخية الأولية للمؤرخين للفترات التاريخية التي تغطيها تلك التقارير.

وتكتسب التقارير أهميتها من عدة جوانب منها:

أولاً: أن فيلبي قد كتب تلك التقارير من واقع خبرة ودراية هي نتاج مشاهدته للأحداث، وجاءت من واقع مسؤوليته التي أتاحت له أن يكون قريبا من مطابخ صناعة القرارات وصناعة الأحداث التي شارك فيلبي في صناعة بعض منها.

ثانياً: أن تلك التقارير لها طابع التقارير البريطانية الرسمية التي تكتب عادة من قبل رجال الإدارة والسياسة والحرب البريطانيين والتي تستخدم بالدرجة الأولى للأغراض والشؤون الرسمية لصياغة السياسات والاستراتيجيات البريطانية وبنائها في المنطقة اعتماداً على تلك التقارير وماشابهها من الوثائق الرسمية المتبادلة بين الأجهزة البريطانية المختلفة.

ولذلك فإن كتاب التقارير يحرصون دائماً على توخي الدقة فيما يكتبون من تقارير لعلمهم بخطورة وأهمية مايبنى عليها من أمور تمس المصالح العليا لبلادهم.

وتحتفظ دور الوثائق البريطانية بعدد من التقارير الرسمية التي كتبها فيلبي خلال سنوات عمله في شبه الجزيرة والتي ينطبق عليها ماذكرناه من أهمية.

ومن أبرز التقارير مايعرف باسم: "بعثة إلى نجد"، وهو مؤرخ في ١٢نوفمبر ١٩١٨م. وسجل فيه فيلبي وصفاً مفصلاً للمهمة الأولى التي قام بها إلى وسط الجزيرة العربية التي تحدثنا عنها سابقاً في هذه الدراسة، والتي كانت ترمي إلى دراسة الأوضاع السياسية والعسكرية للقوى الموجودة في وسط الجزيرة العربية، وبالذات الملك عبدالعزيز وابن رشيد والشريف، ومحاولة تقريب وجهات النظر بمايضمن استقرار المصالح البريطانية في المنطقة واستمرارها. وهذا التقرير هو التقرير الذي قام بترجمته والتقديم له تاريخيا والتعليق عليه الأستاذ الدكتور عبدالله بن صالح العثيمين. ونشر هذا التقرير وطبع في مطابع العبيكان في الرياض عام ١٤١٨هـ بعنوان "بعثة إلى نجد"

Scanned by CamScanner

١٣٣٦ - ١٣٣٧هـ / ١٩١٧ - ١٩١٨ م. وهو التقرير الذي اعتمدت عليه هذه الدراسة فيما يتصل بتفصيلات البعثة الأولى التي قام بها فيلبي إلى داخل الجزيرة العربية، وقد سبق الإشارة إلى ذلك في موقعه من الدراسة.

ويتصل بهذا التقرير، التقرير الذي كتبه الوكيل البريطاني في الكويت هاملتون الذي رافق فيلبي في مهمته وكتب تقريراً مشابها لتقريره، بعنوان: "يوميات رحلة هاملتون إلى نجد"(٨٤).

وهذا التقرير محفوظ في سجلات الوكالة البريطانية في الكويت في مكتب الهند في لندن تحت اسم:

DIARY OF COLONEL HAMILTON'S VISIT TO NAJD, 1918 : MISSION TO IBN SAUD19/9/17- 28/12/1918.

ومن التقارير الأخرى المشابهة لهذا التقارير تقارير أخرى من إعداد فيلبي محفوظة في أرشيف مكتب الهند في لندن المعروف بـ :

INDIA OFFICE LIBRARY AND RECORDS

ومثال ذلك التقرير المحفوظ في أرشيفات الوكالة البريطانية في الكويت ومسجل بعنوان: "بعثة إلى نجد"، ٢ فبراير ١٩١٨ - ٢ نوفمبر ١٩٢٥م(٨٥).

PHILBY'S MISSION TO NAJD, 2/2/1918 - /11/1925.

وتقرير آخر يحمل عنوان: بعثة فيلبي إلى ابن سعود بتاريخ ١٩ أبريل إلى ٢ اغسطس ١٩١٨م، ويتعلق بالنزاع بين نجد والكويت بسبب ما يسمى بتجارة البر أو المسابلة بين البلدين، وموقف بريطانيا من ذلك النزاع(٨٦).

والتقرير محفوظ في الإرشيف البريطاني نفسه باسم:

PHILPY'S MISSION TO IBN SA'UD ; FRICTION BETWEEN NAJD & KUWAIT BECAUSE OF BRITISH BLOCKADE OF LAND TRADE, 19 APR -2 AUG1918.

Scanned by CamScanner